مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

العدد الواحد والخمسون - مارس 2012

خصوصية تدريس مادة التربية الإسلامية

رضوان الحضري
أستاذ باحث
في علوم مصطلح القرآن والحديث - تطوان

إن البحث عن جسور آمنة ميسرة بين الجانبين النظري والتطبيقي في حقل شائك كحقل التربية والتكوين، والتساؤل حول خصوصيات المواد المدرسة وإشكالات تعليمها وتعلمها يشكل هم الهموم في التصور الشامل للقضايا التي يهتم بها البحث الديداكتيكي، وفي طليعة هذه القضايا يحتل البحث في كيفية ملاءمة طريقة التدريس لخصوصية المادة الدراسية مكانة منهجية أولية.

إن التأمل في خصوصيات تدريس مادة التربية الإسلامية يستلزم استحضار قضايا ذات أبعاد معرفية وعلمية ومنهجية، كما يستلزم النظر وإعادة النظر في موارد متنوعة ومنسجمة ومتكاملة.

وفي مقدمة الموارد هذا التراث الحضاري الزاخر بمبادئ التربية السليمة التي شكلت دعامات النظريات التربوية العالمية، ونظريات ابن خلدون والغزالي ليست منا ببعيد، والتي شكلت المرتكزات الأساسية للفكر التربوي الإسلامي، هذا الفكر الذي قام على ركن شديد من خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، كمفهوم ربانية المجتمع الإسلامي، وشمولية القرآن الكريم لكل القضايا والأبعاد المعرفية في السياسة والاقتصاد، والاجتماع والفكر والتربية، والإدارة والتكوين والبناء والإصلاح، في كل ناحية من نواحي الحياة، من أجل بناء الشخصية السوية القادرة على التفاعل الإيجابي مع المجتمع، والقدرة على مواجهة كل صعاب الحياة وأتعابها بعزيمة وحكمة وإيجابية وعمل مبدع وفكر خلاق.

وقد أبان الفكر التربوي الإسلامي عن منهج راشد في التكوين الذاتي، والتربية بالموعظة والتربية بالعبرة، وهذا الإرث التربوي لا غنى عنه للباحث الديداكتيكي، خصوصا وأن مادة التربية الإسلامية تتميز عن سائر النظريات التربوية الغربية بضرورة الإيمان بالغيب وعدم الاكتفاء بالظواهر المادية والأمور المحسوسة، وفي نفس الوقت فإن هذه المادة ليست مادة

جامدة مجردة بل هي مادة مفعمة بالحياة والحركة والحيوية والتفاعل الإيجابي عقلا ووجدانا وسلوكا، علما وعملا، نظرا وتطبيقا، نفعا وانتفاعا وتفاعلا مع واجب العبودية الشاملة للسلوك والممارسة، المتابع للسكون والحركة، ولا يمكن أن تتحقق الغاية العامة المرتبطة بحسن العبادة إلا بمظاهر تطبيقها وتحقيق معاني الاستخلاف في الأرض وهي عملية ممتدة مصاحبة للإنسان في علاقاته الممتدة عبر الفضاء الخاص والعام.

وانطلاقا من هذه الخصوصيات المميزة للمادة، ولا توجد في سواها لا يمكن للباحث في ديداكتيكية التربية الإسلامية تجاوز البعد التاريخي لها في ارتباط وثيق لا انفصام له، فلابد أن يدخل ضمن فرضياته منهجية تدريس الدين الإسلامي في عهد النبوة والخلافة الراشدة والعصور الرائدة وما أبانته من تأصيل علمي منهجي رائع لضوابط التدريس وطرقه وأساليبه، وأمام تنوع هذا الموروث الهائل يجد الباحث نفسه أمام مناهل مختلفة تعينه في الاقتباس والتطوير:

المصادر الدينية: وفي مقدمتها الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنة النبوية المطهرة باعتبارهما المصدرين الأولين لاستلهام البحث في توجيهات المادة، والاقتباس من أساليبهما المتنوعة في الحوار والحجاج والتناظر والإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة.

المصنفات والمؤلفات التي عالجت قضايا التربية والتعليم وغيرها من روافد الفكر التربوي الإسلامي الذي أبانت عن منهج راق في التعامل مع المتعلمين بما يتلاءم وطبيعة تكوينهم وخصائصهم النفسية والسلوكية تجاوبا مع مختلف الوضعيات.

المصادر الحية، والمؤسسات القائمة والأشكال التعليمية التي لازالت قائمة إلى يوم الناس هذا، مثل الكتاتيب القرآنية، والزوايا الدينية ومعاهد التعليم الأصيل[1] أو ما يصطلح عليه طورا بالتعليم العتيق وبرامجه ومناهجه.

أمام هذا الزخم الهائل من المصادر والموارد والنظم يجد الباحث نفسه أما إشكالية التعامل مع ما وصلنا، وكيفية تنزيله على الواقع، ومدى إمكانية توظيفه، إلا أن الباحث قد لا يستقي من هذه المصادر كيفية التدريس الملائمة للمرحلة الراهنة وخصوصياتها وتحدياتها، بل إنه مدعو للبحث عن مادة التعليم بهذه المصادر المتخصصة، إضافة إلى المصادر العامة المرتبطة بعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله والشريعة والتاريخ والفكر والأدب[1].. واللغة والشعر مع ضرورة استحضار الاتجاهات المذهبية التي شكلت الرؤية الفكرية والمرجعية الذهنية التي ساهمت في تشكيل معالم هذا الفكر الاجتهادي التجديدي وساهمت في تطوير المناهج والطرق والأساليب التي تستوجب تحليلا عميقا وفهما مناسبا من أجل الاستفادة الملائمة في تطوير تدريس المادة وبناء منهاج دراسي متكامل ومتناسق ومتجدد استعانة بمقومات غنية تفيدنا في عملية البناء هذه.

من أهم هذه المقومات تلك الإشارات النفيسة والمعاني البليغة والأساليب البديعة التي يزخر بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، القائمة على الحوار والتناظر والتفكر والمذاكرة والحجاج والإقناع سواء بأسلوب العقل والمنطق ومقارعة الحجة بالحجة، كما ورد في حوار إبراهيم عليه السلام مع نمرود، وذكرت به سورة البقرة في قوله تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) سورة البقرة، آية: 258، اعتمادا على الحكمة واللين في التخاطب واستخراج مكامن العقل لاكتشاف السنن وتعليلها وربط الأسباب بالمسببات، وهنا نشير إلى أهمية النتائج العلمية التي كان يحصلها المعلم الأول لهذه الأمة صلى الله عليه وسلم حيث كان يحول بأسلوبه التعليمي أعداءه إلى أصدقاء، ومخالفيه إلى موافقين ومساندين لرأيه والجاهلين والمتهورين إلى عقلاء مبصرين بالعواقب، وهذا المبدأ يظهر بشكل واضح في أسلوبه صلى الله عليه وسلم الذي كان ينهجه مع محاوريه وهو أسلوب نهج في أغلبه منهج الحكمة والعقل والمنطق والبرهان المثير لمكان الفطرة السليمة ودواعي الإيمان، ومن أهم الأمثلة ما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: أدنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلتني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يديه عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[2]. ودون أن ننسى الأسلوب الذي ينبني على الملاطفة والرفق والمعاملة بالحسنى ومخاطبة المحاور بأحب الأسماء والألقاب ومخاطبة مكامن عاطفته وإظهار الاحترام والحب له كما خاطب إبراهيم أباه: (يا أبتي إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبتي لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبتي إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) سورة مريم، الآيات: 43-44-45، إضافة إلى التربية بأسلوب ضرب المثل بحيث إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وأقرب للقبول والاقتناع وتجاوز الخلافات بطريقة حضارية.

وهذا يدل على منهاج راشد في التربية والتكوين اعتمادا على تشخيص أحوال المستهدفين ومعرفة قدراتهم وخصائصهم

النفسية والسلوكية، ومستويات فهمهم وتجاوبهم، وهكذا يمكن اقتباس منظومة متكاملة من الأساليب المتنوعة في الطرح والمحاورة حسب خصوصيات المقام والمقال، فأحيانا يأتي المحاور بالكلام في صورة تقرير، وأخرى في صورة طلب، وثالثة في صورة استجواب، ورابعة في شكل قصة مثيرة، وخامسة في صورة استفهام، لذا يحسن لكل معلم مسيرا أو محاورا حينما يبدأ حواره بالتساؤل باستفهامات متتالية يستطيع أن يجعل منها عناصر لحديثه، وطريقة لاستخراج صاحبه للتفكير معه، وإبداء وجهة نظره.

والمتأمل لكتاب الله سبحانه وتعالى يجد هذا الأسلوب في كثير من آياته... والمتأمل للسيرة النبوية يجد كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ هذا الأسلوب من الحوار والمناقشة في تعليم أصحابه أمور دينهم[3].

دون أن ننسى القدرة العجيبة لمبادئ التربية الإسلامية على احتواء مختلف الثقافات والحضارات، وسبر مختلف الرؤى والمواقف وفق مبادئ دقيقة محكمة وتشريعات ربانية خالدة تعطي ولا تأخذ، وتؤلف ولا تبدد، وتبني ولا تهدم مع الأخذ بعين الاعتبار أنه ومنذ بداية تشكله الأولي وحتى العصر الحديث، تضمن مجرى التاريخ الإسلامي خبرات وحدوية غنية متواصلة تجعل المرء يميل إلى الاعتقاد بأن التوجه الوحدوي للأمة الإسلامية على مستويي القواعد والقيادات ليست مجرد خصيصة من خصائصها، بل هو محرك أساسي لمساحات واسعة من تحققها التاريخي رغم مظاهر التنوع الكثيرة في السياسة وفي الاجتماع وفي الثقافة والفكر والمذهب، بل حتى في الدين، لنتذكر أيضا محاولة الكاثوليكية الإسبانية المسيسة على يد فردناند وإيزابيلا ورجال الدين، تلك التي ألغت أمة كاملة من الحساب، لنتذكر هذا قبالة تنوع النسيج الديني في معظم مساحات التاريخ الإسلامي، حيث أتيح للنصراني واليهودي والمجوسي والصابئي والبوذي والهندوسي... أن يعبر عن نفسه وأن يقول كل ما يريد أن يقوله، وأن يمتلك مقومات الديمومة والنماء والامتداد في بيئة إسلامية لم تمارس في الأعم الأغلب أية مصادرة أو قسر أو نفي لعقائد الآخرين[4]، وهذه من القضايا التي أثارت النقاش في التربية الإسلامية وجعلتها مادة تحتضن الاختلاف وتستوعب التنوع وتستقطب آفاقا رحبة للتحاور والتفاكر والتناظر الذي يغربل الحقيقة بطرق الاستدلال والاستنباط والتحليل والتعليل والتركيب. ولا يخفى ما لهذه الطرق التربوية المتنوعة من أهمية قصوى في تعزيز قيم التواصل ومبادئه كما أقرها الإسلام، وتنمية المهارات وتطوير القدرات الذهنية العليا المجسدة للتحليل والتركيب والاستدلال والنقد، وبناء المفاهيم الشخصية وفق مفاهيم الشرع الأصيلة، واكتساب القيم المرتبطة بها واستدماجها اعتمادا على منظومة متكاملة تهدف إلى بناء الشخصية السوية في شموليتها وأسمى أبعادها، والتربية على التنمية المستدامة ضمن قضايا الحوار والتواصل في مجالات

الاقتصاد والاجتماع والصحة والأخلاق والقيم والمعرفة، وإلى جانب مصدري التشريع الإسلامي كأساس المعرفة والتشريع يمكن توسيع أفق البحث والتطبيق استنادا إلى كتب الفقه التي هي نتاج علمي موضوعي قائم على استقراء نصوص الكتاب والسنة، لاستنباط الأحكام منها، وهي أسس ينظر إليها على ضوء مستلزمات التدريس وطرق استقراء النصوص واستفادة الأحكام منها، واكتشاف قواعد الحكم على المستجدات المختلفة الطارئة في الحياة، وكذا التحديات التي تفرض نفسها على ضوء المستجدات العلمية والتكنولوجية والعوامل الاقتصادية والتحولات الاجتماعية والتفاعلات العالمية المتسارعة.

ويستوجب هذا الأمر عدم الاقتصار على أخذ المادة العلمية فقط، بل استلهام خصائص التفكير المنهجي في الإسلام وأسسه التي توصل إلى استنباط الأحكام من مصادرها، والملائمة في تنزيل الأحكام وفق خصوصيات الواقع، حتى يتدرب التلميذ انطلاقا منها على التحليل والتعليل والتركيب والبحث والاستكشاف، وهذا لا يتحقق إلا بتكوين مدرس متمكن من الكفايات العلمية والمنهجية والاستراتيجية والبيداغوجية والتواصلية، قادرا على تكييفها حسب مختلف المواقف.

إن المادة المعرفية وحدها لا تكفي لتأسيس منهاج أو طريقة أو خطة دراسية فلابد من أخذ الأبعاد البيداغوجية بعين الاعتبار، والحق أن كلا من الأبعاد المعرفية والبيداغوجية متداخلان مترابطان لا تتم العملية التربوية التعليمية في غياب أحدهما، فالكفايات البيداغوجية تكتسب عن طريق التكوين الأساس والتكوين المستمر، وكذا عن طريق الخبرة المتراكمة، وكذا عن طريق المطالعة والمواكبة والمشاركة في اللقاءات والندوات والمؤتمرات العلمية[5]، وتبادل التجارب والخبرات والمعلومات، فالمعطيات البيداغوجية ضرورية لإعداد تصميم طرق التدريس ووسائله مقتضياته وخصوصياته على ضوء مكونات أساسية لابد من استيعابها وأخذها بعين الاعتبار من أجل تدريس المادة.

- الغايات الأساسية للمادة:

من الإشكالات الأساسية التي تواجه بناء ديداكتيك التربية الإسلامية عدم ارتكاز المادة على التربية وحدها، بل ينبغي أن تقتبس من التصور الإسلامي العام عن الوجود والكون والحياة والمجتمع، من أجل ترسيخ المفاهيم الأساسية كمفهوم ربانية المجتمع الإسلامي، وتكامل خلق الإنسان وجوانب شخصيته، وتناسق الخلق في آيات الكون، وتكامل الأنظمة الإسلامية ومبادئ الشريعة، وكذا كمال الدين الإسلامي وخصائصه ومزاياه على سائر الأديان، وكذا شمول مفهوم الإيمان وعمق تأثيره في النفس والمجتمع، ومفهوم العبادة الشامل إلى جانب تجديد أمر الدين بتجدد معطيات الحياة[6] مع ضرورة استحضار الرؤية الإصلاحية القائمة على وجوب الرجوع إلى تراث السلف

الصالح للاستفادة من خبراتهم ومواهبهم ليس من باب التغني بالأمجاد الغابرة ولكن من باب الاستفادة والإفادة من تلك الخبرة التاريخية الثرة والغنية كمؤشر لبرنامج عمل للحاضر واستشراف المستقبل، لأن الأمة التي لا تتجذر في تاريخها سوف لن يكون بمقدورها العثور على مقومات قوتها، وعوامل نهضتها ومراكز ثقلها وسط صراع الحضارات الذي أججه بالاندفاع والارتفاع هذا التطور التكنولوجي الهائل في تقنيات التواصل والاتصال.

- الاستراتيجيات الديداكتيكية:

لا يمكن النجاح في مهمة تدريس هذه المادة دون تخطيط استراتيجي يستهدف بالدرجة الأولى التحرر من الاعتماد المطلق على الاهتمام بتنمية المعارف والمهارات العقلية والعمل على التكوين الوجداني الذي ينبني على التدرب على إعداد المشاريع العلمية وانجاز المهام، ودراسة حالات وإشكالات معينة والتعرض لمختلف الوضعيات المشاكل التي تفرض نفسها وتؤدي إلى التشويش على سلامة الفهم والتطبيق، والارتباك في التصدي والمواجهة، وكذا عرض «نوازل» وقضايا معينة والبحث عن أحكامها من وجهة نظر دينية، والمشاركة في إيجاد الحلول، وتشخيص بعض المواقف واستخلاص العبر منها.

صحيح أن الطرق والمناهج الحالية تتنوع بين الدروس النظرية والتطبيقية والأنشطة، لكن لابد من الملائمة بين التحصيل النظري والتطبيقي مما يتطلب إعادة النظر في تنظيم المنهاج الدراسي، وبدلا من منهاج يتضمن فروعا وأبوابا ومحاور ثابتة، يمكن الاستعانة على سبيل المثال ببعض المعينات الفنية كالقصة، والرواية، والحكاية، والأمثال، والمسرح التي قد تساعد في حل الوضعيات، وتبين المشكلات، وكذا تحليل الأدلة والشواهد والأحكام بطريقة فنية[7] مع وجوب تميز المنهاج الدراسي بمرونة تسهل على الدارس والمدرس القيام بأنشطة ملائمة ومتكاملة مع ما تلقاه التلميذ نظريا وما أنجزه تطبيقيا.

- البعد السيكولوجي لديداكيك التربية الإسلامية:

إذا كان مدار العلمية التعليمية على التلميذ، فلابد من الموافقة والملائمة بين المضمون والمحتوى وبين نفسية وعقلية التلميذ وميولاته واهتماماته وتمثلاته وأفكاره، وحوافزه التي توجهه وخياراته الحاسمة لتفاعلاته واستجاباته ومشاركاته، وهذا يتطلب جعل النشاط التعليمي ذا قيمة علمية بالنسبة للتلميذ وذا فائدة في حياته، وعلاقته بخالقه، وعلاقته بغير وعلاقته بنفسه، وترسيخ فضيلة القيم الإسلامية النبيلة حتى تصير واقعا حياتنا قبل أن تكون نظريات مجردة مسجلة حبيسة الكتب والكراريس، أو مواعظ مستهلكة، ولا يمكن أن تتحقق الإجابة إلا إذا كانت المنهجية

ملائمة للكفايات مع مخاطبة التلاميذ على قدر عقولهم لقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان بعضهم فتنة».

مع مراعاة الجانب الوجداني والسلوكي على تنمية قدرات المتعلم في بعدها الشمولي عن طريق التربية بالقدوة والمثال والقصص القرآني والنبوي، والتربية بالممارسة والعمل والعبرة والموعظة حتى يستقيم حاله ويفيد مجتمعه ويستطيع مجابهة مختلف التحديات التي تعترضه في حياته في إطار الشخصية السوية السليمة الواعية بواجباتها وحقوقها.

نخلص إلى أن المحاور اللازم معالجتها بخصوص إشكالية بناء ديداكتيك التربية الإسلامية متعددة الأبعاد، متنوعة الموارد، متكاملة الروافد على الشكل التالي:

الاستعانة بالخبرة التاريخية الغنية وتوظيفها كمؤشر عمل للحاضر واستشراف المستقبل.

الرصيد العلمي للمادة والتأصيل المنهجي والشرعي لمصادرها ومعارفها.

البعد السيكولوجي للتلميذ من حيث تمثلاته وتوجهاته[8] وخصوصياته وميولاته وخياراته.

الهوامش:

1 - ديداكتيكا، ص: 88 مجلة البحث البيداغوجية - العدد 2 - يناير 1992، مطبعة فضالة/المحمدية.

2 - مسند الإمام أحمد، حديث أبي أمامة الباهلي.

3 - عن فنون الحوار والإقناع لمحمد رشيد ديماس، ص: 173-174.

4 - الوحدة والتنوع في تاريخ الإسلام : بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ص: 14 فما بعدها، الدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الأولى ربيع الأول 1423 - ماي 2002م، دار الفكر المعاصر - بيروت لبنان - دار الفكر دمشق - سورية.

5 - من الأهداف إلى الكفايات، دراسة تحليلية في طرق ومناهج التدريس، ذ. عبد الله ضيف، ص: 4 الطبعة الأولى 2004 - مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

6 - تطوير مناهج التربية الإسلامية، عن مجلة علوم التربية، العدد 44 - يوليوز 2010.

7 - بتصرف عن مجلة ديداكتيكا، ص: 90 - إشكالية بناء ديداكتيك التربية الإسلامية.

8 - بتصرف عن مجلة ديداكتيكا، ص: 92.